أبوشادي والإخوان الماسونيون

حري بي توضيح أن علة كتابتي هذه المقالات عن أحمد زكي أبو شادي هو الكشف عن الجانب الأيديولوجي والنزعات العقدية التي كان لها عظيم الأثر في توجيه شعره وما حواه من رؤى وآراء قد خفيت جميعها عن بعض المثقفين المعنيين بدراسته بوجه خاص والأدب العربي بوجه عام. ذلك فضلاً عن رغبتنا في الكشف عن الحس الفلسفي في كتاباته. لذا سوف انتهج المنهج الوصفي دون غيره مع الإشارة من حين إلى آخر، لأوجه التشابه بين ما حوته أفكاره والاتجاهات الإصلاحية والجماعات السرية التي شكلت البنية الثقافية المصرية في هذه الحقبة، أي أخريات النصف الأول من القرن العشرين.

فإذا كانت المقالة الأولى قد تناولت موقفه من المحافل الماسونية ورسالتها وغايتها، فإن السطور التالية سوف تتناول حديثه - من فوق منبر الماسونية - عن حرية المرأة وحرية الفكر.

وعلى الرغم من أن معظم ما أتى به لا يختلف في هذا المضمار عما ساد من رؤى في كتابات المصلحين الليبراليين من أمثال رفاعة الطهطاوي وحمزة فتح الله وعبدالله فكري ومحمد عبده وتلاميذه وعلى رأسهم قاسم أمين وأحمد لطفي السيد من جهة وآراء العلمانيين الماسونيين ومنهم جورجي زيدان وشاهين مكاريوس من جهة أخرى، فإننا لا يمكننا إهمال ما في دعوته المبكرة وكتاباته الجريئة عن نقد التراث، والمطالبة بحقوق المرأة السياسية والاجتماعية والتأليف بين القديم والجديد وحرية الفكر والاعتقاد والمواءمة بين الدعوة للعولمة أو الكوكبة وفكرة المواطنة والانتماء والولاء للمنبت والأصل.

فها هو يصرح بأنه ينتمي إلى المحافل الماسونية المختلطة - وهي تلك التي لا تتقيد بدين أو جنس أو هوية اجتماعية أو سياسية أو بطبقة اجتماعية - في قبول عضوية من يرغب في الانضمام إلى محافلها، وقد تأسس هذا الشكل من أشكال المحافل (الإيكوسية) عام 1875 على يد الماسوني الفرنسي جورج مارتان في مدينة لوزان بسويسرا - وفد دفعه تأثره بتعاليم هذا المحفل إلى الدعوة المبكرة لحقوق المرأة السياسية - كما ذكرنا - وذلك فضلاً عن حقوقها الاجتماعية والثقافية، بداية من حقها في التعليم حتى المشاركة الايجابية في صنع القرار السيادي، ومن أقواله في ذلك.[1] « يعمل الإخوان والأخوات سواء على الإسراع نحو تلك اللحظة التي نرجو بلوغها قريباً لنشر لواء العدالة السياسية الاجتماعية، تلك اللحظة التي يصبح فيها الحق الإنساني بعد الاعتراف به حقاً يتمتع به الرجل والمرأة دون أي تمييز أو تفضيل، سواء في الأسرة أو في الهيئة الاجتماعية... أردنا في هذه الدفعة التي اتخذنا فيها المرأة عضداً لنا أن نعود إلى مهمة الماسونية القديمة التي لم يتيسر لها أن تثمر الثمر المنتظر. وسبب ذلك على ما نرى يرجع إلى عدم اشتراكها في العمل مع هذا العضد الذي لابد من مساعدته... أن عدم اشتراك المرأة في أعمال الماسونية حرم فعلاً المناقشات في الماضي من عامل ضروري لضمان حل المسائل التي تعرض في المحافل لصالح الأسرة والأمة والإنسانية بأجمعها. ومن أجل ذلك قررنا أن نجمع في محافلنا على اختلاف درجاتها الرجال والسيدات على أسس المساواة بأتم معانيها. ورأينا أيضا أن حضور الرجال والسيدات في المحفل يدعو إلى زيادة حفظ الكرامة في آداب المناقشة بين الجميع، وهذا طبعاً

(1) أحمد ذكي أبوشادي: البناية الحرة، خطرات عن الماسونية، صـ 40 وما بعدها.

بفضل إيجاد عاملي الإنسانية في محافل مشتركة. ولما كنا من أنصار وجوب تربية الرجال والسيدات معاً، رأينا أخيراً أن خير وسط يتيسر فيه العمل لتحقيق تلك الأمنية هو المحفل الماسوني المختلط حيث يجتمع فيه جنباً إلى جنب الرجل وامرأته، والوالدان وأبناؤهما، والإخوان وأخواتهم، ومن ذلك المجموع تتكون أسرة عظيمة مكبرة».[1].

و يضيف أبو شادي أنه من الخطأ تجاهل دور المرأة في تربية الصغار، وكذا خضوع الأزواج إليهن، فلا غرو في أن تأثيرهن على الرجال ولاسيما في الأمور الاجتماعية والوجدانية والعقدية أخطر من أثر الرجال عليهن، ومن ثم فإن مفتاح التغيير في ثقافة المجتمع بوجه عام هو المرأة. فينبغي بذل الجهد الأكبر لإعدادها لتصبح آلية صالحة لكل ما نرجوه من نهضة واستنارة وحرية.

وبناءً على ذلك يجب إعادة بناء العلاقة بين الرجل والمرأة في المجتمع الإنساني على هذه الأسس:

أولها: أن تكتسب المرأة مكانتها في المجتمع تبعاً لقاعدة المصالح المتبادلة بغض النظر عن غيرها من الأفكار الموروثة (التربية، الزواج، التعليم، العمل، تولي المناصب، الاختلاط والصداقة).

وثانيها: أنه لا ينبغي على المجتمع حرمان المرأة من حقوقها السياسية، وذلك لأن هذا الحرمان يُعد سلباً لقدر كبير من حريتها وحرمانها من ممارسة فعل لا يحول بينها وانجازه سوى بعض الآراء الرجعية المستمدة من ثقافة ذكورية بائدة.

(1) المرجع نفسه، ص 88.

وثالثها: أن تربية المرأة على أن المجتمع والأمة لا يسيرهما ويقودهما سوى الـرأي الجماعي القائم على احترام رأي الأغلبية سـوف يقضي حتماً على كل أشكال الاستبداد التي تعاني منها المرأة.

ورابعهما: التسـليم بـأن الحرية هي حق من حقوق الوجود الإنسـاني وأنها في الوقت نفسـه مسـئولية يجـب أن يتحمل توابعها المـرء في توجيه أفعالـه، وانتخاب مواقفه، فالقانون وحده هو الذي يحد من تلك الحرية، فينبغي على كل أفراد المجتمع وضع قوانين على نحو لا يخالف الفطرة من جهة ولا يجعل الحرية شـكل من أشـكال الفوضى والعـدوان على حقوق الآخريـن من جهـة ثانية أو شـعاراً أجـوف يتحكم فيـه أيديولوجيات وتصـورات يلفظها الرأي العام ويمجها الذوق الحسـن وتجحدها الفضائل الأخلاقية السائدة.

وخامسـها: أن معيار الكفـاءة وحده هو الذي يـبرر اصطفاء القيادات، فالرجـل والمـرأة أمام القانـون سواسـية، فالتعليم واكتسـاب المهارات هو السبيل الذي يجب للمرأة أن تسلكه لتتفوق في سوق العمل.

وينتقـل أبـو شـادي من حديثـه عن حريـة المـرأة إلى حريـة التفكير والاعتقاد، فنراه يؤكد على أن حرية الكتابة والبوح والنقد بكل أشكاله يعد من الحقوق الأساسـية للإنسـان، وعليه لا ينبغي وضع قوانين أو لوائح تحول بين المواطنين وممارسـة هذا الحق، اللهم إذا ما تعارض ما ينشرونه في المجتمع مـن أخبار وآراء وأفكار ومعتقدات مـع الصالح العام للدولة أو تهديد أمنها أو السـعي لهدم كيانها وتفكيك عناصرهـا مثل تحريض الجمهور للتمرد على قانون الخدمة العسـكرية أو الامتناع عن أداء الضرائب المسـتحقة أو نشر

الأكاذيب، فإن مثل ذلك لا يعد شكلاً من أشكال الحرية بل هو مسلك فوضوي ينبغي العزوف عنه ومعاقبة من يسلكه.

وفي ذلك يقول «لا يجوز أن يُمس أي إنسان من جراء آرائه السياسية أو الفلسفية أو الأدبية متى كان تظاهره بتلك الآراء لا يعكر صفو الأمن العام. وحرية تبادل الأفكار والآراء من أعز حقوق الإنسان الذي له أن يتكلم ويكتب وينشر بكل حرية إلا في الأحوال التي يعدها القانون افتئاتاً على حدود الحرية».[1]

ويضيف أبو شادي في كتابه «روح الماسونية وآمال الإنسانية، وهو الكتاب الثاني الذي وضعه للترويج للمحفل الذي رأسه عام 1926 في بورسعيد - كما أشرنا - لذا ينبغي النظر لهذه الأقوال باعتبارها الخطاب الدعوي المؤسس للإخوة الماسونية» في حملته على الجمود والتعصب والرجعية والإقصاء والعنف» أن التعصب بكل صوره يحول بين العقل والتفكير الحر والفعل الإرادي والنقد البناء والحكم الواعي»

ولما كان الغرض الأساسي للماسونية هو البناء والإصلاح فكان لزاماً عليها محاربة ذلك العنف الفكري المتمثل في رزيلة التعصب.

وللحرية قيود مستمدة من العادات والتقاليد والقيم الخلقية التي تتناسب مع العلم والعقل معاً، بالإضافة إلى آثارها الإيجابية في المجتمع ومعالجة آفاته ومشكلاته، لذا تجد الماسونيين يناصرون العلم والعلماء ويدافعون عنهم ومكتشفاتهم بما استطاعوا إليه سبيلا ويؤسسون الجمعيات التي تبث في المجتمع الفضائل ومكارم الأخلاق وأخرى عن مكافحة الإدمان والمخدرات

(1) المرجع نفسه، صـ 95، 96.

والعهر. ذلك بالإضافة إلى تشييد دور العبادة بغض النظر عن الملة أو الدين أو الإله المعبود فيها (معبد وثني أو كنسية أو جامع).

وينتقل أبو شادي لمناقشة قضية الولاء والانتماء في ظل دعوة الماسونية للإخوة العالمية، فذهب إلى أن جميع المحافل تدعوا إلى الأخوة العالمية، غير أنها في الوقت نفسه لا تريد نزع روح الولاء والانتماء للوطن شريطة أن يكون ذلك الحب لا يتعدى المشاعر الرقيقة والحنين للأرض والصحبة والخلان، ودون ذلك يُعد من ألوان التعصب والعنصرية والعنف تجاه الآخرين وهو مع ذلك يبيح الحرب دفاعاً عن الوطن ضد أي معتدي من أولئك الذين استباحوا السطو على الأمم النامية والدول الضعيفة، فإذا كانت الماسونية تنشد السلام العالمي فإنها تحارب في الوقت نفسه كل أشكال الاحتلال. ويقول «أن الذي لا يعرف حب أسرته لن يعرف حب وطنه. ومن لا يعرف حب وطنه فلن يعرف حب (الدولة الماسونية) الكبرى التي ترمي إلى تكوين جمعية أخوية دولية عظمى».[1]

فالماسونية - على حد تعبيره - عبادة فكرية، ومعاهد أخلاق وفضائل، ومصادر إحسان وإرشاد، وتعاليم سرية تضمن بقائها وتحافظ على كيانها وتعاليمها واستقرارها، وتحوي فلسفة تجمع بين الروحية والمادية والنظر والعمل والمثالية والواقعية والتفرد والجماعية والليبرالية والاشتراكية ووحدة الأديان والتسامح الطائفي والنزعة العقلية.

❐❐❐

(1) أحمد ذكي أبوشادي: روح الماسونية وآمال الانسانية، محفل البدر المنير، طبعة بورسعيد، 1926، صـ4.